

دلائل الإعجاز

ولكن لأن يتأتى لك إذا نظمت شعراً والفت رسالة أن تحسن التخير وأن تعرف لكل من ذلك موضعه .

وأمر آخر إذا تأمله الإنسان أن يف من حكاية هذا القول فضلاً عن اعتقاده وهو أن المزية لو كانت تجب من أجل اللغة والعلم بأوضاعها وما أراد الواع فيها لكان ينبغي أن لا تجب إلا بمثل الفرق بين الفاء وثم وإن وإذا وما أشبه ذلك مما يعبر عنه وضع لغوي . فكانت لا تجب بالفصل وترك العطف بالحذف والتكرار والتقديم والتأخير وسائر ما هو هيئة يحدث لها لك التأليف ويقتضيها الغرض الذي تؤم والمعنى الذي تقصد وكان ينبغي أن لا تجب المزية بما يبتدئه الشاعر والخطيب في كلامه من استعارة اللفظ لشيء لم يستعبر له وأن لا تكون الفضيلة إلا في استعارة قد تعورفت في كلام العرب وكفى بذلك جهلاً . ولم يكن هذا الاشتباه وهذا الغلط إلا لأنه ليس في جملة الخفايا والمشكلات أغرب مذهباً في الغموض ولا أعجب شأناً من هذه التي نحن بصددنا ولا أكثر تفلاً من الفهم وإن سلاً منها . وأن الذي قاله العلماء والبُلغاء في صفتها والإخبار عنها رموز لا يفهمها إلا من هو في مثل حالهم من لطف الطبع ومن هو مهياً لفهم تلك الإشارات . حتى كأن تلك الطباع اللطيفة وتلك القرائح والأذهان قد تواضعت فيما بينها على ما سبيله سبل الترجمة يتواطأ عليها قوم فلا تعدو وهم ولا يعرفونها من ليس منهم .

وليت شعري من أين لمن لم يتعب في هذا الشأن ولم يمارسه ولم يوفّر عنايته عليه أن ينظر إلى قول الجاحظ وهو يذكر إعجاز القرآن : " ولو أن رجلاً قرأ على رجل من خُطبائهم وبلغائهم سورة قصيرة أو طويلة لتبين له في نظامها ومخرجها من لفظها وطابعها أنه عاجز عن مثلها ولو تحدثت بها أبلغ العرب لأظهر عجزه عنها " وقوله وهو يذكر رواية